ملاحة الخاني

الوجـه

هبطت غيمات سود منذرة على قمة قاسيون ، وانسحبت ذيولها الرمادية واطئة تكاد تلامس المآذن المتناثرة المتعالية .

حين قصف الرعد ، رفعت المراة اصابعها النحيلة السمراء تسد اذنيها ، ثم راته الامطار تنهمر وتبلل شوارع دمشق . اغتسلت الدروب واصبحت الجدران انظف ، وظهرت الالوان انصع ، رجعت يداها الى الابرة والخيط تشدان على ثوب أسود بملل ، عاودت حركة الغز مرة ، مرتين مرات ثم رفعت الخيط فلامس اطراف اسنانها اللامعة . قطعته .

مرة اخرى تقترب من الشباك ، الحياة التي كانت تتدفق حواليها تتـــوقف . وفجاة يخلو الشارع من المارة .

تلصق وجهها بالحاجز البلوري الشفاف ، خيط عنكبوتي يفصلها عن الزمن والنـــــاس ، تختزن في ذاتها سنين ثرة من غنى عـــاطفي وفكري .

المراة لنفسها :

ـ كم يوغل ذاك اليوم في البعد ؟

تومض الذكرى ...

يومها تواعدا قرب حـــديقة عامة مستحدثة في حي امتد اليــه العمران ، نيسان كان ينوّر ويعطر . كانت الاشجار نبتات صغيــرة لا ترتفع عن الشبر رقيقة العود ، مستوحشة في ارض غريبة . فجاة ، انهمر المطر ، حبات من لؤلؤ صاف .

يداه كانتا دافئتين تشدانها بحنـــــان ، والمطر يغسل الشعر والكتفين ، يعلق بالاهداب ويسيل على الخدين والانف خطوطا عذبــة رقيقة تتالق كالقصب ، فيركضـــان الى ظل رواق يحتميان ، وينشر فتاها جريدته مظلة من ورق فوق راسيهما المتقــاربين كعصفورين . انتظرا ، انتظرا ... وفي غفلة من المارة المتناقصين الهاربين قبلها . كانت تلك قبلتها الاولى .

النافذة المؤبدة .

تمسح المدينة بعينيها . المدينة تنتشر ، تتصل بالافق ، تكبر ، وبردى في البعد ينفسح في دروب دمشق ، يغسل ما علق بهـا من اوشاب .

تتحسس ساعديها ، تتنفس بعمق ، لم يطحنها الالـم ، جذورها عميقة ، متشعبة في الروابي والسهول وفي الهواء .

يهدر دولاب الحياة من جديد قويا متلاطما حيا . وهي نقطـــة ضائعة مضيعة ، ذرة ، جزيئة من العالم الكبير المتلاطم .

ترخي المراة الستائر الهفافة البيضاء .

تدير ظهرها الى الناس ، تفتل زر المذياع تحركه ، بهدوء تغيــر عدة محطات . تنساب موسيقى حلوة في اوصالها ، رخية ناعمـــة ، تستريح على كرسي . يسقط راسها المتعب ثقيلا على رقبتها ، يظل عمودها الفقري منتصبا قويا .

تسمع من بعيد مرسوسة حبيبة قريبة اليها ، تتنبــه للصوت ، تجلس مستقيمة ، تتيقظ عيناها ، تقتحمان البـــاب والجدران ... تنتظران المجهول ... ثم لا شيء . الخطى الهادئة على الدرج ابتعدت .

تعود الى جلستها ثانية ، ترتسم على قسماتها الحادة ابتســامة ساخرة ، تتقلص وجنتاها ، فيخبـــو البريق في العينين الذكيتين ، تسكن فيهما الوحدة والوحشة .

المطر ينهمر . صوته يفجر اشواقا غائرة في الاعماق . تفتـــح كتـــابا :

« صفحات مجهولة من حياة امراة » ... امراة اخرى ضـــاعت واضـــاعت .

تقرا على زاوية :

« ليتني اقرا لك هذي الكلمات اذا ما فتحت كتـــابي هـــذا بعد سنين » .

تغلق الكتاب . تتجلد ، تمنع لهفة فتستند الى الحائط . المذيع يعلن عن اغنية ملول يجترها المغني .

عادت الخطوات تقترب عجلى ، نظامية ، كل يوم تقترب ، كـل ساعة ، خصوصا في ساعة معينة من بعد الظهر .

انه رجلها حتما هذه المرة يقترب .. يفتح الباب ، قلبها ينفتح .. تراه بقلبها وبعينيها .. يطل بقامتـــــه الرشيقة ، ينفث التعب بين شفتيه ، يتاوه ببطء كمن بلغ دار الامان . تحت ابطه رزمة من اوراق كبيرة ومجلات . يبتسم . يضعها على الطاولة ، يحيي بلهفة وعجلة .

ـ مرحبا ..

يرتجف صوتها واهنا :

مرحبا ..

تظل تلتزم مكانها .. تعاند ، تكابر ، تلاحق خطواته التي تتوقف امام غرفة نومهما . تلتصق بمقعدها . تراه بمؤق عينها يفك ربطةعنقه، يرميها فوق كرسي . في نظراته الجانبية ، في عينيه كـــلام كثير . وكالعادة ، يلولب اصابعه على نفسها ، يحركها بعصبيـــة .. كـــان دوما عصبيا .

تتيه افكارها حول نغم قديم كانت تردده كلما تواعدا قربالحديقة العامة المستحدثة .. حينذاك ، في تلك الايام المبتعدة ، كان الفـــرح يلمع في العينين ، وتتورد الخدود .. وعلى خشية وخفر ، يقتـــرب

الانف من الانف ، فتفغم الخياشيم رائحة الحياة .

تبتسم للذكرى .

ما الذي يبعث الذكرى ؟

يلوح امامها بسنيه الاربعين ، بقامته المشدودة الصلبة ، بعمره الذي انقضى في حرب مع الحياة والمعرفة ، حرب مع القديم والجديد، مع الاشواق ، الاطماع ، المطامح ، الشماتات ، الحسد ، الرياء ، الكذب ..

ماذا حمل هذا الراس ؟ أين هو الآن ؟ اين المتاعب والافراح ، اين المطامح والكفاح والمشقات ؟

يسكن الحزن العينين البنيتين . ملامح وجهها تتصلب ، تترقرق دمعة تظل عالقة بين الاهداب ، وعبر الدمعة تراه ، تراه وبكل خوالجها تحس حضوره .

تنهض بكبرياء ، تغير من وضع الكتب ، تزيحها الى رف خشبي مسمر بالحائط ، تفرش المائدة بغطاء نظيف ، قدماها تسبقانها . صحنان ، ملعقتان .

تطوي الفوطة على شكل وردة ، ينطلق النظر خلف زوجها الغائب تحتويه في اطارها .

ـ هذا صحنك ..

ـ صحني ..

ـ هذه كاسك ..

ـ كاسي ..

تبتسم ، يبتسم .

تجلس على الكرسي مهيبة ، تتامل الافق الرمادي عبر النافذة ، تظل عيناها مسمرتين على الافق ، ثم تتحسس كاسها باطراف اصابعها وترفعها ، تداعب خواطر قديمة ، وتضج في اذنيها عربدات صاخبة : تلصق الكاس بالكاس تقرعهما : تشرب النخب جرعة واحدة ، تستمرىء الطعم المز للشراب المنسرب .

تتاوه :

ـ احقا مضى ذلك كله وانقضى ، وبمثل هذه السرعة ؟!

يثقل عليها الصمت . تقوم الى المذياع ، تحرك ازراره من جديد بغير استعجال . يعلو صوت المذيع متحمسا بلا جدوى :

« انباؤنا بالتفصيل » .

تعود فتجلس امام الطاولة في تادب .

حدقتاها ثابتتان قويتان ترفضان الغياب ، تكذبان الواقع ، تعلوان عليه ، تود لو انها لا تسمع ، لو تتحدث مع الغائب عن متاعبها اليومية، افكارها التي تحوم حوله ، مشاغلها الصغيرة ... فيشمشع صوته في الدار ، يغضب ، يؤنب ، تقسو نظراته ، لكنه يظل الرفيق في الدرب الطويل ابدا .

يخفت صوت المطر ، حباته تتناقص ، المراة خائفة من المطر ، والخوف يتسلل كالخدر الى قدميها الباردتين من المواسير المخربة ، والمياه التي ترشح بين الجدران .

يرتسم التفكير على جبينها . لاح امامها البقال بقامته الضخمة كجزار في يده ساطور ، يلاحقها بنظراته الدبقة ، وانتشرت امام عينيها فواتير الحساب ملاى بارقام مفهومة وغير مفهومة ، وظهر الجيران ببسماتهم وتحياتهم المؤدبة ، لكن المتهربة ...

تحس برغبة الافضاء ، غير ان عليها ان تتاقلم مع الجديد ، مع هدوء البيت ، السكون ، الوحدة ، وخطوط الهاتف الصامتة ابدا .

التعب يحتل العينين المحمرتين .

عاد صوت المذيع :

« والآن حالة الطقس في الاربع والعشرين ساعة المقبلة ... » .

اخرست الصوت ، فشعرت بالراحة .. ما اجمل الصمت !

نظرت الى الصحنين الفارغين ، داعبت اصابعها الكاسين الى ان ضمت احداهما للاخرى . تلهفت فيها الانثى .

الافكار تتلاطم كخيول في حلبة سباق . مباراة صعبة ومثيرة يعسر معها الاختيار . تسيطر على نفسها .

ـ لم اتحدث عن ابننا ، انه يكبر بسرعة .. آه .. انه يسبق عمره . اصبح هو الآخر منذ غيابك متمردا عصبي المزاج ، يجعله التفكير الدائم صموتا عجوزا ، البارحة قبلني وترك دمعة على رقبتي .

تاخذ المراة نفسا عميقا ، تقضم اظافرها ، ثم تمسح باصابعها الطويلة على عينيها الجافتين ، ان كل ما حولها يدور ، الارض تدور وراسها يدور .

ـ تسالني عن السنديانة ؟ اما زلت تدعوه بالسنديانة ؟

« السنديانة يقرأ كل شيء : كتبك . رسائلك حتى الحميمة منها «ما كنت تبعث اليّ في اسفارك .. وضع يده على اشيائنا الصغيرة المخباة في درج الخزانة التي كانت ملكنا ، وليت ترى القطع التي نقشت عليها اسمك :

« شريف بركات » كيف اضاف اليها اسمه .. اصبحت تحمل اسم : « مازن شريف بركات » . بودي لو ترى اليه الآن ... بصماتك على وجهه ويديه وامتشاق جسمه . اضحى اكثر جمالا وقوة . اطلق شاربه الصغير على فم دقيق مزموم ، تماما كما لو ان الحياة عادت اليك ، يقلدك في كل شيء ويربت على كتفي كلما آنس مني غضبا وضعفا ، كما كنت تفعل انت » .

تنظر الى الساعة الكبيرة ، رقاصها يتارجح بملل ، دقاتها كئيبة مرهقة ، ولدها لم يعد الى البيت .. ووجه الزوج الحبيب اخذ يبتعد ، ويبتعد مع دقات الساعة ، كشهرزاد ادركها الصباح ، او كالاشباح التي تختفي مع اولى خيوط الفجر ، ثم لم يعد الوجه سوى نقطة سوداء ، تتارجح في الفضاء وتمحي .

تاخذ راسها بين يديها ، فلا يبين من الوجه سوى الانف والكلمات تبهت على الشفتين وفي القلب .

فجاة يندس مفتاح في الباب وتبدا حركة قوية في المدخل ..

تنتفض :

ـ مازن ، هذا انت ؟

يطل الابن كالفرحة مثقلا بكتب الجامعة ، بعد ان تخفف من معطفه المبلل :

ـ «من غيري ؟! تناولت الغداء ؟

ـ نعم اكلت ، استاخرتك . اظن انني اكلت ..

ـ تظنين ؟

ينظر الى المائدة .

ـ ارى مع ذلك صحنين وكاسين .

ـ لا احس بالجوع .

يقترب منها ، يرفع ذقنها ، ويتمعن في ملامحها .

ـ وجهك لا يعجبني اليوم ، تحسين بشيء ؟

ـ ابدا ...

ـ بلى ، مرة اخرى عدت تتحدثين مع أبي ، حتما .

تنهض بسرعة . تتحرك نشطة ، بهمة ، ومقدرة ، كلا ، انها لا تحس بشيء ولم تتبادل الحديث «مع المرحوم . تنقل الخبز والماء ثم تسكب الطعام في وعاء نظيف ، وقبل ان تتجاوز به باب المطبخ ، تتسمر قدمها لحظة ، لا ، يا مازن ، لا احس بشيء . انا بخير ، كل شيء بخير .

تدخل عليه باسمة . يتناول صحن الطعام . وبدوره يبتسم :

ـ هه ... هكذا افضل . تعرفين ؟ وجهك اجمل بكثير عندما تبتسمين ..

دمشق